

الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لظهوره الفرنسي

— ١ —

ليس هناك في ما أعتقد شيء من جميع ما ترك أسلافنا العرب من تراث خالد ما هو أدعى للاعجاب والفتور من أن نرى تلك الفلحة اليسيرة من أقطاب الفلسفة العربية تحمل مكاناً بارزاً في مصاف فلاسفة العالم وأن تنقش أسماءهم على لوحة الخلود إلى جانب أشهر نوابغ العالم ورجال المفكرين . فأسماء ابن سينا والقرظالي والفارابي وابن رشد وابن جبرول وابن الطيقل ستظل مقرونة أبداً إلى اسم فيثاغورس وأفلاطون وأريسطو والقديس توما والبرت الكبير وغيرهم من أساطين الفلسفة الخالدين . بل وسوف يسو ذكر أولئك بنوالي القرون إذا تدرك الشعوب أنه لولا جهود العرب ورغبتهم النادرة في نشر الفلسفة والعلوم واحتفاظهم في ظلمات تلك الأجيال بكنوز علوم المتقدمين لتأخرت النهضة العلمية في بلاد الغرب قروناً عدة لا محالة

وأي عربي لا تأخذه حزة الطرب والادبيلح الشديد عند ما يذكر كيف كانت تقاطر توافل طلاب العلم والفلسفة من متفرق الأنحاء إلى قرطبة بالاندلس مدينة العلم الزاهرة وكعبة الفلسفة في ذلك العصر ليتلقوا عن أبي الوليد ابن رشد أسرار الحكمة الشرقية وآيات الفلسفة العربية وكيف كانت الملايين من ذوي المعرفة والاطلاع في أرقى الممالك يتزقبون سرفرة آرائه وأفكاره ليسترشدوا بهديه ويستنبطوا بهرأسه

لشأن الفلسفة العربية في زمن تشابه أحواله وعوامته الأحوال والوسائل التي دعت لقيام الفلسفة اللاهوتية Scholasticism وقد كانت كتاباتها تستقي من مصدر واحد هو الفلسفة اليونانية القديمة والانفلاطونية الجديدة Neo-Platonism وترهبان إلى غرض واحد هو تطبيق

التعاليم الدينية على أحكام العقل أو التوفيق بين مذاهب الفلسفة وعقائد الدين . وقد تقدم معنا في مقال سابق تحت عنوان « أدوار الفلسفة الثلاثة » أن الفلسفة اللاهوتية لم تطلع بمذهب جديد في عالم الفلسفة وهكذا كان شأن الفلسفة العربية . ذلك لأن زعماء الفيلسوفين العربية واللاهوتية لم يكونوا طلاب حقيقة لأن الحقيقة الواحدة العظمى أزلت لهم وحيًا في الكتب السموية فلم يكن ثم من حاجة إلى مزيد . ولولا أن أعداء الدين من فلاسفة الوثنية قاموا بمحاوون نقض الأديان الإلهية الجديدة وحنقها في الهدر ربما لم تكن هناك فلسفة لاهوتية ولا عربية . ولما كان سلاح خصوم الدين الجديد مبادئ الفلسفة القديمة التي كانوا يفسرونها ويؤولونها حسبما يوافق أغراضهم كان لا بد لفلاسفة اللاهوت من تقان الفلسفة اليونانية وعمحصها لمحاربة أولئك القوم بمثل أسلحتهم وردمهم على أعقابهم خائين . وقد بلغ فلاسفة العرب في إتقان فلسفتهم الدينية حدًا جعل العلامة الفيلسوف الفرنسي ليري يقول أن الفلاسفة العرب قد فاقوا في فلسفتهم الدينية نظرائهم من فلاسفة التصراية . وهو اعتراف له قيمة الكبرية عند أهل العلم والمعرفة يد أنه وإن يكن الفلاسفة العرب لم ينشئوا مذهبًا خاصًا جديدًا في الفلسفة فتم تمكنوا من أن يحملوا فلسفتهم شأنًا يذكر في سائر الاقطار . وذلك طائد إلى ذلك العربي العربي الذي استطاع أن يمثل الفلسفة اليونانية تمثيلًا بقرتها كثيرًا من الأذهان ويجعل تناولها سهلًا سائغًا لجميع طلاب الفلسفة والعلم . وأن من يمن النظر في رسالة « حي بن يقظان » للفيلسوف الأندلسي الكبير ابن الطيفيل يدرك الحد البعيد الذي بلغته فلاسفة العرب في اجتلاء غوامض الفلسفة اليونانية وفك طلاسمها وكشف خفاياها



قلت أن القصد من الفلسفة العربية كان تطبيق مبادئ الفلسفة على تعاليم الدين والتوفيق بينها وقد جرى انقوم على ذلك في كافة شرائعهم ومنهم بإيمان خالص وتسليم تام . يد أن فريقًا منهم ممن اطلقوا لاقسم حرية التفكير الفلسفي رأوا في بعض عقائد الدين ما لا ينطبق تمامًا على أحكام العقل أو مقتضيات مذاهب الفلسفة فخالفوا الجماعة في تلك العقائد وأنشأوا لانقسم مذهبًا خاصًا وكان منهم فرقة المتمردة

يد أن أول آثار الفلسفة التي تذكر راعيها في تاريخ الفلسفة العربية هي « رسائل اخوان الصفا » وهي إحدى وخمسون رسالة وضها اصحابها وكلهم من أهل التقوى والاطلاع الواسع اترغت في شكل دائرة سارف لتكون مجموعة الفلسفة والعلوم منذ الصور القديمة إلى ذلك العصر . وقد كان لهذه الرسائل شأن خطير وتأثير قوي في جميع أنحاء العالم الاسلامي لا سيما وأن واضعها

من الصنفوا الانصراف التام الى الامور الدينية والتفكير الفلسفي . أما النفاية الرئيسية التي ترمي اليها هذه الرسائل فهي ترقية النفس البشرية بالمواهب الروحية الى أن تبلغ حد الكمال اللساني بما يماثل الكمال في الذات الالهية وذلك بواسطة التأمل والتفكير الفلسفي . وانها لسري فكرة جدية بكل اعتبار . ولا تقول ان الفلاسفة اليونان لم يدركوا هذه الحقيقة او لم يقولوا بها لكنهم لم يبروها الاهتمام اللازم ولم يحلواها المنزلة التي احلها فيها فلاسفة العرب حتى في بدء عهدهم بمباحث الفلسفة ومذاهبها وطرفها . ثم إن المحور الذي تدور حوله ابحاث الرسائل هو نظرية الفيض الالهي التي اخذها العرب عن المذهب الافلاطوني الجديد وآثار هذا المذهب ظاهرة في كل موضع في الرسائل تقريباً وخلاصة أن كل شيء في الوجود صادر بطريق الفيض او الانبات من الذات الالهية العظمى والى وحدة تلك الذات الالهية مرجعاً ومصدر وان على الانسان أن يحرر نفسه من عبودية المادة ويطهرها من ادراكها لتمود النفس طاهرة خالصة الى بارئها والمصدر الذي كان حلة وجودها . وقد كان لهذه الرسائل شهرة واسعة وتأثير كبير في كافة الاوساط على الرغم مما يتخللها من اقوال ومباحث كثيرة في الرافة والسحر والتنجيم وغيرها من الابحاث القبيحة

ثم ان جماعة الاخوان اصحاب الرسائل يؤلفون بانفسهم مدرسة خاصة مستقلة ولطقتهم صفة دينية بحث ولا غرو فهم قوم الصنفوا بالاكثرا الى الامور الدينية طيلة حياتهم فلم يكن يدنو من ذلك الاتجاه الديني الصنف



على ان هناك فريقاً من اهل الفلسفة يرجعون في مبادئهم الفلسفية الى قواعد المنطق واحكام العقل ويبنون آراءهم على حوادث الطبيعة ونواحيها واحكامها وهم يؤلفون بانفسهم مدرسة خاصة تعرف بمدرسة الطبيعيين او العقليين لاهتمامهم احكام العقل وقواعد المنطق في بناء آرائهم ونظرياتهم . ويمكن نعت هذه المدرسة الى قسيتين : المدرسة اشترقية التي زهت في خاصة الخلافة السياسية في اوائل العهد العباسي امي في القرن التاسع والحادي عشر . والثانية التي قامت في عهد الخلافة الاموية بالاندلس . وقد كان ام اركان المدرسة اشترقية ابو اسحق الكندي (توفي سنة ٨٧٠ م ٢٥٧هـ) وابو نصر الفارابي (٩٥٠م ٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس ابن سينا (١٠٣٧م ٤٢٩هـ) وجميعهم من القائلين بان الفلسفة يجب ان تبنى على العلوم الطبيعية وذلك بدرس الطبيعة نفسها ومراقبة انظمتها ونواحيها . وهم يتمدون قواعد المنطق في وضع آرائهم واحكامهم وهذا ما يبرهنه ابناء العصر الحديث بالطريقة العلمية الحديثة وهي الرجوع في كافة

المذاهب والآراء العلمية والتلسفية الى نواميس الطبيعة واحكامها ، الا ان النظر العلمي عند زعماء هذه المدرسة يختلف كثيراً عن رأي أهل هذا العصر فهم يدخلون ضمن دائرة العلم الطبيعي ويخلطون بينه أرباباً وفنوناً غريبة ليست من العلم في شيء كفنّ السحر والتنجيم وتفسير الاحلام وغير ذلك . وكانوا يشيرون هذه جميعها أرباباً او فروعاً حقيقية من فروع العلم ولها من الشأن ما لغيرها من العلوم والفنون الطبيعية . وكانوا يستفدون بوجود أرواح نظرف أسماء القضاء وقطن النجوم ويزعمون ان من هذه الارواح الملائك الوارد ذكرها في القرآن والتوراة

أما في ما يتعلق بمخلق العالم ومادة الكون الاصلية فان الفارابي وابن سينا يعدلان مراعاة لتعاليم الدينية رأي أرسطو الفائل بازية المادة ويتخلصان من الوقوع في نظرية الخلق من العدم بقسمة الوجود الى تسين واجب ويمكن . فالواجب هو الكائن او الموجود الاول وهو ما يوافق الفارابي وابن سينا في رأي أرسطو بأنه العقل الاول او انفعال أول وأهم المصادر رأساً عن الذات الالهية العظمى . وهو أزلي أبدي وكل ما عداه فهو مسبب عنه متولد منه . أما كيفية نشوء العالم من مصدر وجوده فهي بطريقة الفيض او الانبثاق emanation theory ويذهب الفارابي الى ان المادة هي احد الاشياء المنبثقة او الصادرة عن الذات الالهية . أما ابن سينا فيقول بازية المادة والعالم . ولكن كليهما يعتقد ان الخلق سناء بروز الصورة في المادة او خروجها من حيز القوة الى حيز الفعل فكان الباري جل وعلا يضع في المادة قوة كاملة لها الاستعداد الكافي للظهور بالصور المختلفة عند حصول الظروف او الاسباب الملائمة لظهورها ويذهب الفارابي وابن سينا — وهو مذهب أرسطو بيده — الى ان العقل الاول او العالم هو الذي يتحد بالعقل الانساني في الافراد فيتولد منه المعرفة والعلم . ويزعم الفارابي ان العقل المتولد في الفرد من هذا الاتحاد هو خالد أبدي وهذا يوازي القول بمخلود النفس . أما ابن سينا فيذهب مع أرسطو الى أن الخالد إنما هو العقل العالم او عقل الالهية فقط دون الافراد وفي أواخر القرن الحادي عشر ظهر كتاب « تهافت الفلاسفة » للإمام الاكبر الفيلسوف أبي حامد الغزالي فأقل بظهوره نجم الفلسفة في بلاد المشرق . ذلك ان الامام أبا حامد يعارض في كتابه « التهافت » نقض مذاهب الفلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرها وذلك اتصافاً للدين ومراعاة لطرفة التعاليم الدينية فجاء كتابه صدمة للفلسفة في ذلك العصر وكان من أثر ظهوره ان بسطت هم الفلاسفة العرب عن مباحث الفلسفة ونقضوا أبواب السلطة باحراق كتبهم

الفلسفة ولكن لم يتعرض النزالي في إبحاثه لمسألة الخلق وخلود النفس وهو مختص غير جدير بأهل الفلسفة ورجال العلم

يد أنه لم تكند تجرب نفس الفلسفة العربية في عاصمة العباسيين حتى طلعت في سماء الغرب في تلك البضة العربية الصغيرة في الاندلس، ولكن بلسان أبي وضياء أسطع اذ قام بحجة من أهل البويع الشرقي والذكاء العربي النادر فاقاموا معالم الفلسفة وبلغوا بها مبلغاً رفيعاً وذاغت شهرتها في الآفاق حتى غدا طلاب السلم يتوافدون بالآلاف من ملبن ونصارى ويهود الى قرطبة كعبة الفلسفة والسلم في ذلك الوقت لاستماع اقوال أبي الوليد ابن رشد وتلقي مبادئ الفلسفة ومذاهبها عنهُ . وقد كانت طريقة ابن رشد في التدريس من نوع القاء الخطب والمحاضرات في شتى الموضوعات الفلسفية والعلمية والادوية . ويستند الافرنج ان الذكاء العربي بلغ في ابن رشد اقصى مداه



كان ابو بكر محمد بن باجة يستند بخلود العقل السام دون الحواس وهو عقل الانسانية التي تبدو ماعية وآثاره في الافراد. وكان ينكر الصوفية (mysticism) والاعتقاد بالفناء او الاندغام في الذات الالهية بواسطة التنشف والصلاة او الهيام والاستراق (ecstasy) بل يقول ان هذا الاتحاد يمكن بواسطة رقية توانا العقلية ومواهبنا الروحية الى المراتب السامية التي يمكن ان يتم بها ذلك الاستراق والاتحاد . وقد وافقه على ذلك ابو بامر ابن الطيلى في روايته الفلسفية المشهورة «حي بن يقظان» التي يمثل فيها كيفية نشوء القوى العقلية والروحية في فرد نشأ في جزيرة بعيدة منقطعة عن السران وكيف توصل اخيراً بالارتقاء العقلي الطبيعي والرياضة الروحية الى الاندماج في الذات الالهية وهو غاية مساهة . وان من يطالع هذه القصة الفلسفية السامية يدرك ان الفلاسفة العرب لم يتكروا باباً من ابواب الفلسفة الطبيعية والعقلية لم يحالوه ولم ينادروا موضوعاً لم يوفوه حقه من البحث والتفكير

أما النيلسوف الكبير ابن رشد وهو الذي يرفقه الافرنج باسم Averroes فقد كان محبباً كل الاعجاب بالفيلسوف اليوناني ارسطاطاليس وكان يستند ان الذكاء البشري يقع في هذا الفيلسوف اسمى مراتبه

كان نصارى هم ابن رشد شرح فلسفة ارسطو وتمثيلها تمثيلاً صحيحاً شافياً بما يقرب كل الغرب من الاصل اليوناني فينفرد وحده بذلك الشرح والتفسير . ولكن من المحقق انه لم

يستطع إنجاز مهمته هذه وذلك لسببين : الاول لان ابن رشد لم يدرس فلسفة أرسطو في كتبه الخاصة وبالأصل اليوناني لانه كان يجهد اللغة اليونانية بل في الكتب العربية التي ترجمها علماء النساطرة والسريان في الشرق والغرب وهوؤلاء أخذوها نقلاً عن زعماء المذهب الاغلاطوني الجديد ومن شروحه لفلسفة أرسطو التي اصطبغت بين ايديهم بشيء كثير من نظرياتهم وآرائهم الخاصة . لهذا ترى في شرح ابن رشد وتطبيقاته على فلسفة ارسطو مذاهب وآراء ليست منها كسالة الفيض الالهي ومسألة عقل الانسانية العام وغيرها . والثاني لان ابن رشد كما رأينا فلسفة الفنون الوسطى كان لا بد له في وضع آرائه الفلسفية من مراعاة جانب الدين خشية الرأي العام وسخط الرؤساء والحكام

ذهب ابن رشد في قضية الصورة والمادة الى ان الصور كائنة بالقوة في المادة نفسها غير مضافة اليها كما زعم الفارابي وابن سينا وبمحصل ذلك بواسطة قوى او صور اسمى منها والتي اسمها العقل الالهي . لذلك فسأله الخلق حسب مقتضاها الجمهور لا عقل ، ويقول ان هناك عقلاً واحداً طاماً هو عقل الانسانية وهذا العقل العام يفعل في العقول الخاصة في الافراد فيرشدنا الى المعرفة . وهذا بالله ابن رشد بهذه الكيفية : ان في قلوب الافراد استعداداً فطرياً اوقالية لتأثر بهذه المؤثرات فانحد العقل العام بنفس قابلية التأثر ينجم عنه نفس فردية مستقلة . كما ان التور لا يميز شيئاً محسوساً الا اذا صادف جسماً مادياً تنعكس عنه أشعة كذلك شأن النفس التي فيها استعداد لتأثر بمؤثرات العقل العام ثم انه بتوالي تأثير العقل العام في الخاص او عقل الفرد فان للمعرفة الكائنة في الاخير نصير ظاهرة بارزة وتأخذ بالارتفاع تدريجياً الى ان تبلغ اسمى مراتب الشعور الذاتي او معرفة الذات وتصبح اذ ذلك واحدة مع الروح الكلي وبعبارة اخرى تندمج او تندغم فيه وتصبح جزءاً من العقل الكلي المشترك بين اجزاء الانسانية بهذا المعنى فقط يمكننا ان نقول ان الارواح خالدة لا ان النفس البشرية خالدة بذاتها كما يعتقد عموم البشر انما الخالد هو الروح الكلي فقط

واتهم ابن رشد في سنيه الاخيرة بنشر مبادئه وتعاليمه تضاد عقائد الدين فأمر الخليفة المنصور بقتله من ديوانه الا انه عاد ففاد عنه لما عرف من سوء حاله في منقاه ولكن لم يشأ ابن رشد بد الفو عنه الا سنة اوحدة ثم توفي في عام ٥١٥ للهجرة وله من العمر ٧٥ سنة